الأقحوانة راحيل
قصّة صغيرة



تأليف مكاريوس جبّور

٢٠١٩

الأقحوانة راحيل
قصّة صغيرة

تأليف مكاريوس جبّور
٢٠١٩

تقديم وإهداء

لماذا هذه القصّة؟

لآنّ الظروف شاءت أن تبدأ في زمن محدّد لم يكن في الحسبان، وفي مكان بعيد عن الأذهان!

إنّها قصّة ممزوجة من الحقيقة والخيال.

أُهديها إلى الأقحوانة راحيل...

اللقاء



قلتُ لها: ما بالها تحملق فينا وكأنّنا من كوكب آخر؟
وأضفتُ في نفسي: لماذا لا تتركنا وشأننا؟
أجابتني: إنّها النادلة، وهي هنا تنتظر تلبية ما نطلبه.
وفجأة سقطت دمعة من عينها، فأحسست وكأنّ جبلاً قد سقط فوق كتفيّ أو بركانًا ثار في أحشائي.

سبق للعلماء أن اكتشفوا أسرار البراكين والزلازل، أمّا سرّ دمعتها فبقي عصيًّا عن السبر.
في ذلك المقهى جلسنا والشوق ثالثنا، وكأنّ ريحًا هوجاء قادت قلبينا إلى حيث اللقاء، ووجدتُني هائمًا بغتتة في سحر تلك الرائحة التي عبقت من كلماتها الدامية.
مَن أنا أمام أكابر الأدباء والشعراء لأصف جمالاً لا يوازيه جمال إلاّ زرقة البحر مع بزوغ الفجر!
وشعرتُ وكأنّ الشمس تُشرق من عينيها، والأرض تدور في فلك يديها، والأزهاء تتفتّح في رحيق ريقها.
وهوت المحظورات كما تهوي أسوار قلعة أمام مجانيق جيش لا يُقاوم.
وانطلق بي المسبار إلى أعماق تلك الشمس بدون أن أبلغ أبدًا.
وكيف لمؤرّخ أن يتحوّل فجأة إلى عالم فضاء؟ وكيف يُغلق على شمس بين دفّتَي كتاب تاريخ!
وراودني شعور بأنّ "الآن وهنا" كنظريّة تسقط أمام تلك الدمعة التي غيّرت مجرى التاريخ.
ومرّت، بين تلك الدمعة والحديث عن التاريخ، حقبات بأكملها، من العصر الجليدي إلى سقوط آخر نيزك في عصرنا.
وخلتُ نفسي أُعيد قراءة التاريخ على معقد جامعة من اختصاص جديد.
هل سمعتَ شمسًا تتكلّم عن ذاتها؟ بالبطع لا! وجميع الكلام عن الشمس لا يعدو كونه مجرّد جمل لا فحوى لها ولا مضمون.
وجب عليّ أن ألتزم الصمت حرصًا منّي على مكانتي كمؤرّخ، ولكنّني رحتُ أستعرض عضلاتي وكأنّي في محاضرة جامعيّة. والحقيقة أنّي لم أسترسل إلاّ لأُبقيها معي أطول فترة ممكنة، وأكتشف سرّها، فالشمس تُشرق، ولكنّها تغرب أيضًا. ولستُ من العاشقين الذين يُفضّلون التحابب وقت الغروب.

ومضت ساعات الليل طويلة وكأنّها سنة ضوئيّة انتظرتُ خلالها أن تُشرق شمسي أنا، إذ طالما تملّكني شعور بأنّها لي وحدي.

وجدتُ أسمى المشاعر فقيرة أمام محاسنها، وأرفع الأوصاف لا تخلو من شطط إزاء تلك النظرة الشبيهة بالثقب الأسود الذي لم يفهم العلماء سرّه إلى الآن.

يجدر بمَن يحترم نفسه أن يصمت في الأحداث الجلل، وبصاحب الأخلاق ألاّ يلمس وردة فوّاحة في حديقة، وألاّ يقترب من إحدى عجائب الدنيا.

طلبتُ الفاتورة وقد مالت شمسي إلى المغيب. وودّعتها على وقع أنغام ضربات قلبي الذي عزف عليه جورج زافيرو أجمل مقطوعاته.

وبدأت الملحمة، وهي قصّتي القصيرة هذه بقصر تلك الساعات القليلة التي سكبت فيها بحروف من ألم سيرتها التي تُذيب الصوّان...

الأقحونة الحزينة

هل أنا الأنثى الوحيدة التي قُدّر لها أن تركض تحت وابل بَرَد التناقضات والتقلّبات، وصواعق المبهمات؟ أم إنّ هذا قدر كلّ إناث الأرض، أو ربّما حتّى جميع أبناء آدم؟

أحاول البدء في التفتيش، ولكنّي مجبرة على أن أعرف أوّلاً معنى كلمة تفتيش.

في تلك القرية الصغيرة الجميلة في نظر العامّة والمليئة بالأسرار في نظري، أبصرتُ نور هذه الدنيا الغامضة التي تُشبه لعبة الكلمات المتقاطعة. وكأيّ طفل غير مكتمل النموّ بعد، لم أفهم، آنذاك، أنّ خلف تلك الأشجار قصرًا كبيرًا تسكنه جنّيّة يهابها البشر أجمعون. وقصة تلك الجنّيّة يخشى أن يتفوّه بها أحد.

لم أتوقّع يومًا أن تُشبه قصّة حياتي سيرة راحيل ابنة لابان وزوجة يعقوب النبيّ المذكورة في فصول سفر التكوين!

لطالما كانت قريتي عالمـًا جميلاً وغريبًا في آن معًا بالنسبة إلى طفلة حظيت بالدلال على قدر المستطاع. وما إن بدأ عقلي بالقدرة على التحليل، هاجمتني أسئلة كثيرة وكبيرة وشتّتني. هذه القرية أصغر من أن تتّسع لأحلامي. ولا يمكن لطموح فتاة يافعة أن يبوح بمكنونات قلبها في غابة تكسوها أشجار الأسرار والألغاز.



وعندما طرحتُ السؤال الأوّل عن هويّتي، بل هويّتنا، جاءت الأجوبة كالصخرة فوق صدري، ولم أستوعب مضمونها إلاّ بعد أن تركتُ قريتي وتوجّهتُ إلى المدينة. حينها اكتشفتُ أنّ مصيري هو الركض الدائم تحت بَرَدَ التناقضات. أن يتجاوب معك الآخرون، وأن يُلبّوا ما تطلبه حبًّا بك، أكذوبة عظيمة، وإنّما يفعلون ذلك لأنّك تنحدر من تلك القرية حيث الجنّيّة التي يهابونها. كم أثار فيّ هذا الشعور الشفقة والإقياء!

نحن الأفضل، لا لأنّنا نتميّز عن غيرنا بعظائم الصفات، ولكن لأنّ واقعًا فرض نفسه علينا قبل أن يفرضه على غيرنا. أضف إلى ذلك أنّنا نجهل هويّتنا الحقيقة، ونعيش وفق الأساطير التي لقّنونا إياها بدون أن نُدرك كلمة من مضمونها.

لطالما حلمتُ بحبّ ينزع من داخلي تلك الأمواج العاتية التي ضربت شراع روحي.

ما بين مقاعد الدراسة والتخرّج الجامعيّ، وما بين زواجي وموت والدي ثمّ موت زوجي، محيطات من الدموع والألم غمرتني بدون رحمة، ولم تتوقّف عن لطمي بالصخور حتّى صقلت شخصيّتي التي تاه كثيرون عن سبر أغوارها، وكأنّ الجنّيّة شيّدت حولي سياجًا حاجزًا من أشواك سامّة.

كسّرت صدمات الحبّ قلبي مرّات ومرّات، لدرجة حوّلتني، رغمًا عنّي، إلى مارد في ثياب ظبية.

وفي تلك الليلة التي تكلّلتُ فيها بالبياض وأشرقتُ كالثلج الذي تعكس الشمس بياضه، وجدتُ نفسي في حلم أشبه بقصص الأميرة والذئب وبيضاء الثلج وسندريلاّ والأمير... ولم يخبرني أحد أنّ تلك القصص من نسج خيال البشر.

وفجأة تحوّل نفوري من قريتي إلى حنين ممزوج بكره. إذ بين تلك الأشجار الشامخة سبق أن رحتُ أبحث عن لحن شجيّ يُفرّغ سيل الدمع من مقلتَيّ.

ودارت الأيام دورتها، وكأنّ شتاء حياتي لا ربيع له، وتماثلت شخصيّتي مع جلال هذا الفصل الذي يكرهه كثيرون بسبب قسوته.

وشاء القدر أن يُكمل لعبة الشطرنج فوق أنفاسي، واستجرّني إلى الحلبة واختار الحكّام لتحديد الرابح والخاسر، وخسرتُ من الحركة الأولى، وسقط الملك.

هل خياراتي خاطئة، أم هو الظلم يختار الأقحوانات الصغيرة ويضربها بأعاصيره؟ حاولتُ جاهدة أن أشقّ طريقي بعد خسارتي لسندي ومدرّبي ومرمّم جراحي. وبحثتُ عبثًا عن شبيه له، فلم أجد سوى صورتي في مرآته.

وأصابني ما أصاب راحيل الأمّ والعاقر في آن معًا، فيعقوب أحبّني، وأختي ضرّتي تملّكته وتلاعبت به بزريعة أنّ أرضها أخصب من أرضي وثمارها أوفر.

وبدون أن أُقرّر وجدتني أبحث عن مجدي الخاص بحثي عن ثوب يستر ضعفي.

وبين الألم والألم، ألم ثالث من نوع جديد، غير أنّ الله رقّ لزهرته المختارة، فحمّلها وزرًا من نوع آخر، أعني به الرحيل والنجاة بجلدي، لأضع، في مكان آمن من الأشواك، أولاد راحيل الذين هم أصلاً هبة الله، ليكونوا لها سياجًا يقيها من الغدر. سأهب صباي وقوّة صبري لهؤلاء الأبناء. وسأحاول أن أكشف لهم ذلك السرّ المكتوم مهما كلّفتني الأمر.

أتوق إلى ربيعي الذي ولدتُ فيه، وإلى قطّتي ودجاجتي، وإلى العبث والتأنيب. وأرى الصخور تتحطّم تحت ضربة إزميلي الذي شحذته أوليّات دفاعي النفسي في لاوعيي.



أخاف من الحبّ ثانية وكأنّه شبح يأتيني في المنام، وأرتجف من صمتي الذي يُدوّي في داخلي كالرعد.

لماذا ولدتُ أنا والسعادة في تاريخَين تفصل بينهما قرون؟

من ليلة طربتُ ورقصتُ لأنّي قهرتُ النعاس! أقلّه استطعتُ التغلّب على شيء في أعوامي الثلاثين التي تصرّمت.

أضع الحيل لجسمي الذي حاول الاحتيال عليه بعض قطّاع الأزهار. لقد طوّعته وأصبح كالعصفور الأليف في قفص عقلي.

أعرف بانّ شتاتي لا يزال طويلاً، وأنّ بيني وبين الرحيل الأخير أعوام طوال، غير أنّ الرحيل أنواع وأصناف، ورحيلي من النوع المحظور والممنوع تحت طائلة الملاحقة القانونيّة.

كم كرهتُ القوانين والأعراف التي طالما كبّلتني بسلال من أوهام كما كبّلت كثيرين قبلي.

أبحثُ عن روحي التي تاهت في شوارع المدينة، وعن نَفَسي الذي اختار السكنى في القرية. ثلاثة أنا أو ربّما أربعة، وكلّ واحدة منّي نحتها فنّان مختلف.

لا أزال أتخيّل لهونا في أزقّة القرية، وكيف كنتُ سريعة الغضب، وكيف كانوا ينعتونني بالعنيدة، وكم تعرّضتُ للقصاصات بسبب شخصيّتي الصلبة التي لم أتوقّع أن تُكسر في يوم من الأيام.

منذ نعومة أظفاري اختلطت عليّ مشاعر الدلال والغنج من جهة، والقسوة والتأنيب من جهة أخرى. ولم أشعر يومًا مع والدي بأنّي عصفور في قفص. أفتقد إلى حضوره في كلّ لحظة، وقد سبّب لي رحيله المبكّر صدمة كشفت لي الوجه الآخر للحياة.

لما لا يُقدّر لي أن أختار إلاّ ما يستحيل الوصول إليه؟ كم أشياء رغبتها نفسي في طفولتي، وما إن مددتُ يدي لألمسها حتّى اختفت كالظلّ عند إطفاء النور!

رائحة المطر أوّل الخريف تعبق في أنفي... ولكنّي لا أزال أجزع من المطر والبرَدَ لأنّي أدوام على الركض هربًا من التناقضات...

النهاية

قبل أن تُكمل الأقحوانة راحيل البوح عن سرّها، مالت الشمس إلى المغيب، وطريق ال لا عودة بات محتومًا. ووجدتُني أصفُ قصّتها التي قطع سردها الغروب بالأفكار التالية:

سأعود غدًا إلى حيث تركت زورقي
حيث الحنين والمشروب
والصور المعلّقة على الجدار
حلب التي أجهلها اليوم
سأقول للدرج: عد بي إلى الماضي
مشاهد طفولتي التي غطّتها الغبار
اسمعني قصيدة يا محمود
رباعيّة أو خماسيّة
كعمري الذي تصرّم
شرط أن تكون وهميّة
كالأحلام
سأطرق الباب أو افتح بالمفتاح
سأندهش وكأنّي لا أعرف
إنّي تركتك ورحلت.... أو ربما تركتني ورحلت...

للأعراف والتقاليد جنونهما
ولي جنوني
كم من أوهام جعلنا منها حقائق!
وكم من حقائق بدّدناها كالدخان!
استيقظي يا أحلامي الورديّة
فالقهوة بانتظارك
وأرنب ميشو العجيب

والهرّة التي يحبّها ابني
وراحيل التي تبكي
لا أريد ضجّة في الأسفل
تأخّر اليوم يا صافي ولا تزعجني
وكفاك تكنيسًا يا عامل النظافة
لذكرياتي الممتزجة بالتراب
رحل ميشو ورحل أرنبه
وكم من أحياء قد رحلوا
ترمّلت الكلمات
وانتحب الشوق
عودي! لن تعودي...
فلكلّ أسطورة لا بدّ من نهاية...

سأشقّ طريقي نحو ال لا عودة
لا مكتبة لمقالتي
وجع القلب مستمرّ حتّى نهاية الأجل
أبحث عن مقال من نوع مختلف
عن أرجوزة منقطعة النظير
عن ليلة تحت السماء في الصحراء
يا قلب إلى ما ستعذبني!
رحلوا... افهم... رحلوا
إلى غير عودة
لن اضع زيتًا في قنديلي
ما همّي إن استضاء البشر أم لا!

قبري فارغ ينتظر تشريفي
وستُرمى قصصي لتحلّ مكانها
الستائر الباهظة
التي ستستر جدرانًا طُبعت عليها ذكرياتي...

يصلبني الحبّ كلّ يوم ألف مرة
ولا أجد قيروانيًّا يساعدني
حطام الدهر بين يدي
وسبع رابض في صدري
أرغب في الصراخ
ولكن ما الجدوى!
نكّست علمي
وأعلنت الحداد إلى الأبد
ورسم لجوكندا لا أزال أبحث عن سرّه
وبياتريشي ملحمتي الخالدة
رميت الصور في الحاوية
ما نفع الرمي طالما أنّها في قلبي!
قبّليني قبل الوداع
ادعي لي وقت الغروب
هوت الشجرة من شدّة الريح
عرفت أن خسارتي قريبة
وانتهى المشهد الأوّل من المسرحيّة   قبل أفهم اللغز....
عودي فأنا معلّق على الصليب
ونوحي عليّ قبل أن يحلّ يوم القيامة....

قبّليني قبل أن يشعلوا الأنوار
فالكلّ يعتقد أنّه فيلم!
سيارة الإسعاف أسفل
تحمل تاريخنا الطويل
من سيقلق عليّ إن وصلتُ أم لا!
طالما أنّ هاتفك مقفل والقبر أيضًا!
عيد ميلاد كآبي اقترب
ستقولين وهل أحتاج إلى مَن يذكّرني!
تتصاعد الأحزان دفعة واحدة
وأنت لا تزالين نائمة
تصبح كرة من جليد على وشك التدحرج
ويدك لا تزال تمسك بيدي
ودموعك تحرق كبدي
خنت! قصرت! فشلت! تهاملت!
أجيبيني... قبل أن تنطلق السيارة...

سأقفزُ فوق ذلك المصير المحتوم
مرّوا من هنا وعبروا
ولا أزال أنتظر صهيل الخيل
ودويّ الرعد
وصوت فوران القهوة على النار
سأقفز من على شرفة أشواقي
لكي لا أسمع رنين الهاتف
وأظنّك أنت
ولكي لا أرى حنيني ينتحب

وتلك الأواني النحاسيّة رميتها
ورميتُ ضحكتي معها
وغدًا سأشيّع آخر نساء الحيّ
كفانا قيل وقال وأنانيّة
ودفاع وتبرير
سرقك الدهر، فلماذا الانتظار؟
ولماذا هذا الإصرار على أن تكوني
وأنت هناك، وهنا لن تكوني...

أُلقي تحيّة الصباح على الغراب
في السادسة تمامًا
وأنظر نحو القنديل في الأفق
غاب نوره مع شروق الشمس
وأترقّب صوتك ليناديني من خلف القضبان
قضبان سجننا الدهري
ويمرّ شتاء وصيف
وفصول قصّتي لا تنتهي
وميزان الضغط في الخزانة ينتظر يدك
والفستق والسعال... آياتان في كتاب
ونافذة الباب التي أُغلقت إلى الأبد
وجميع الخلايا الجذعيّة التي فشلت في المختبر
وقلبي الذي أذابه الحنين إلى كلمة انتهار
ستكونين هديّة بابا نويل للميلاد القادم؟
أم سيكون الحادي والثلاثين من آذار نهاية الحداد؟
ودقّات قلبي والساعة

وحفلة نهاية السنة
وأستيقظ من سكرتي
ليكون الغياب ولا أراك...

أكتب ولا أعرف إن كنت أكتب إليك
أم إنّه الكيّ!
والكيّ آخر دواء لما نسمّيه الذكرى
وأعود أدراجي إلى ليال خلت
وأوراقي مبعثرة هنا وهناك
وسلّمي إليك قد انكسرت درجاته
وحمّى الحنين والأنين
والجنين في بطني
وكأسي مترعة من خمرة الألم
سألد غدًا في الحادية عشرة تقريبًا
وسيكون ابني آخر ملوك العزّ
وتسير القافلة، وأنا أنتظر...

أبرمت اتفاقيّة مع الصمت وعقدًا مع الأرق
فأولادك الثلاثة غارقون كلّ في همومه
وأنت حاولت الانصاف بدون جدوى
أن أكون المفضّل، وسام لم استحقّه
وداعًا أيّها الأمس
فاليوم لديّ ما يكفي من الانتظار
وأعرف أنّك لن تتّصلي
ولن أغضب من كثرة اتصالاتك

وتسألني الأقحوانة: ما بك؟
وأهرب من الجواب
وأخرج باكرًا أبحث عن أمل
وساعات العمل مضجرة
أُصبتُ بوباء الحنين
وليس من دواء
لن أُقلع عن عاداتي المملّة
في نظرك
غريب الأطوار أنا
ولكنّي لست أغرب من القدر...

لا أتقن حسن الكلام
ولست محترفًا بالبرتوكول
ولا أبالي إلاّ بالحقيقة
انتقدوني إلى ما لا نهاية
إياكم أن تتوقّفوا
فالطفل الذي في داخلي
أبعد ما يكون عن الانضباط
والأرض مكتظّة بالمجانين الذين أضاعوا حيواتهم في الركض وراء التربية والأخلاق
ولم يتعلّموا أنّ التربية والأخلاق لا يوقفان لهو طفل صغير
اركضوا ولا تتوقّفوا
أمّا أنا فقد اخترت قدري

ما هي القوانين التي تستطيع أن تمنع دمعة تسيل من عين مجروح؟
وما هي الأعراف التي تقدر أن توقف ضحكة بريئة؟

وأية ديانة يمكنها أن تقضي على عطسة؟
ما هي الحجج المنطقيّة التي تبرّر قمع الغناء والبكاء والشتاء؟
وما هو الشرع الذي يرغم طفلاً على عدم شرب الحليب؟
سأحبّ بهمجيتي المعهودة
وأعشق بفوضويّتي الدائمة
سأركض وراء الألم واقتله
ووراء الانضباط واغتاله
ووراء كلّ ما يمكن أن يمنعني من أن أكون
ذلك الطفل التي لم ينضجه الدهر
ليصبح معتوهًا مثل أبناء آدم...

يسرقون الابتسامة والفرح
ويقمعون اللهو والمرح
ويدمّرون الحبّ والجنس
ويسخرون من العطاء والحس
بهدف بعض من جاه
وقليل من البرستيج
وبين ما يفعلون وما يعلنون هوّة عميقة
ثمّ يسألونك عن الأكل والشرب
وعن نزهات في غياهب الظلمات
وعن سرير هجرته لتنام في العراء
وعن كتاب رميته لأنّه يفضح ال لا مبالاة
وعن حنين إلى عرش لم يتربّع عليه أحد
وعن طفل ينمو في حقول ألغامهم
وعن النرجيلة والفحم

وعن آخر ما حرّره القتل من قصائد
والتغنّي والتهجّم والتشنيع والمسلّمات
وكلّ نوع من الحساسيّات
وأنت مجبر أن تكذب عليهم وتزيد في قناعاتهم
بأنّهم على صواب
لكنّهم جهلوا ويجهلون أنّ عصر الصراع في داخلك
قد عبر ومضى إلى غير عودة...

وطويتُ دفتري، وانتهت القصّة قبل أن تبدأ...



حلب في
الثامن عشر من تمّوز ٢٠١٩

